جذور الحجاج المغالطي في الحضارات القديمة

ولعل تفطّن الإنسان لما في المغالطة الحجاجية من قوّة، وقدرة على التأثير، بغض النظر عن كونها تعّبر عن الحقيقة أم لا، هو الذي دفع البعض من الفلاسفة إلى احترافها، وتوظيفها من أجل الغلبة، والتكسّب بتعليمها للناس. وفي اليونان القديمة نشأ تيار فلسفي قائم بذاته هو التيار السوفسطائي؛ وأصحابه " كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء، وبإيراد الحجج الخلابة في مختلف المسائل والمواقف. ومن كانت هذه غايته، فهو لا يبحث عن الحقيقة، بل عن وسائل الإقناع والتأثير الخطابي"[1]. وأبرز زعماء هذا التيار : بروتاغوراس الإبديري (Protagoras of Abdera) وغورغياس الصقلي (Gorgias of Siceliot) وبروديكوس دو سيوس (Prodicos de Ceos).

ولا ينبغي إنكار إسهام الأساتذة السوفسطائين في تطوير أساليب الحجاج بعامة، والحجاج المغالطي على وجه الخصوص، " إن إسهام السفسطائيين في نظرية الحجاج تبقى جوهرية، (وكذلك أفكارهم عن اللغة)، فلقد وضعوا، على سبيل المثال، نظاما لاستخدام محسنات التأطير (figures de cadrage) التي تسمح بتقديم وجهة نظر، أو تصويب رؤية، أو ميزة لموضوع، أو لرأي ما. وقد كان ذلك أيضا فنّا يسمح بإظهار الأقل ضعفا. وهذا يعدّ السمة الأكثر قوة "[2].

لقد راهنوا في الأساس على " عالم يمكن أن يكون متعلقا باللغة، عالم مخلوق ومحتوى في الكلام الإنساني فقط "[3]، وهذا في حد ذاته تعبير عن وعي عميق بدور اللغة، وأهميتها، وخطورتها كسلاح لا يختلف في شيء عن أي نوع من أنواع الأسلحة المادية التي يستخدمها الإنسان في الحفاظ على وجودة والدفاع عن كيانه، أو هذه الأدوات التي يصطنعها لقضاء حوائجه ومآربه.

وفي المقابل نشط تيار آخر يقوده أرسطو (Aristote) متسلحا بالمنطق العقلي، ليفضح مغالطات هذا التيار. وفي الحق : لولا السوفسطائية، وما اعتمدته من مغالطات حجاجية، لما أنشأ أرسطو المنطق الصوري. إن منطق أرسطو كما يتجلى في شروحات ابن رشد منطق استدلالي بامتياز، أكثر منه منطق مشاعر، ولذلك فقد أخذ أرسطو على صناع الكلام من سوفسطائيين وأفلاطونيين أنهم يخصّصون الجزء الأكبر من احتجاجاتهم لمسائل خارجة عن ماهية الموضوع، وبالتالي فهم، لكي يؤثروا في القضاة، فإنهم يستخدمون الظنّ والشفقة والغضب وغيرها من المشاعر النفسية.

---

[1] يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ط، 1936، ص 58.

[2] فيليب بروتون وجيل غوتييه : تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة محمد صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، ط1،2011، ص 24.

[3] المرجع نفسه، ص 23.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019

وفي تاريخ الاسلام نشأت مدرسة الكلام الاعتزالية بعد تفشي الحجاج المغالط بين الفرق السياسية الإسلامية، التي تحولت بعد حين إلى فرق كلامية. تعتمد كل أساليب المغالطة من أجل الغلبة والظهور على الخصم. ولذلك يقول الجاحظ : " ولولا الكلام لم يَقُم لله دين، ولم نَبِنْ من الملحدين، ولم يكن بين الباطل والحقّ فرق، ولا بين النبي والمتنبّي فصل، ولا بانت الحُجة من الحيلة، والدليل من الشُّبهة "[1].

وأنت ترى أن الجاحظ في هذه العبارة يقسم الكلام قسمين : قسم يعتمد الحجة والدليل، وقسم آخر يعتمد الحيلة والشبهة، أي المغالطة. ويبيّن بوضوح أن دور علم الكلام دورٌ معياري يفضح المغالطة ويكشف عن جوهرها الواهي.

والحقيقة : إن تاريخ الكلام في الاسلام هو تاريخ حافل بالنضال الحجاجي، ومن الطبيعي أن تحتل فيه المغالطة الحجاجية موقعا متميزا. وإذا كنا لا نعرف على وجه الدقة تيارا بعينه احترف المغالطة كاستراتيجية كلامية، كما احترفها السوفسطائيون اليونان، فإن التيارات والمذاهب الاسلامية، دون استثناء، قد انتهجت المغالطة كأسلوب يتغيّى الغلبة والظهور على الخصم. ويكفي أن تراجع أيّ كتاب من كتب الكلام القديمة لتقف على حجم المناورات التي يعتمدها هذا التيار أو ذاك.

دراسة المغالطات الحجاجية

وإذن فقد كان للمغالطة الحجاجية إسهام كبير في نشأة العلوم المعيارية كالمنطق الصوري عند اليونان، وعلم الكلام في الإسلام. وفي اليونان القديمة درس أرسطو المغالطات الحجاجية وأحصاها وصنفها في كتاب السوفسطيقا[2]. ويستعرض لنا عبد الرحمان بدوي هذا الكتاب، الذي كثرت ترجماته العربية، وأشهر أبوابه : (1) القياس والمغالطة، (2) أنواع الحجج في المناقشة، (3) الأغراض الخمسة للحجاج السوفسطائي، (4) التبكيت في القول، (5) التبكيتات التي خارج القول، (6) رد الأغاليط إلى تجاهل الرد، (7) أسباب الأغاليط، (8) المباكتات السوفسطائية في المادة، (9) استحالة معرفة كل التضليلات، وغيرها.

إن كثرة أبواب المغالطات الحجاجية، وتنوعها، يدل دلالة واضحة، على أن هذا المبحث قد درس دراسة متأنية مستوفية، كما هي الحال في أبواب المنطق الأخرى، التي تتجلى بوضوح في شروحات ابن رشد[3]. ومهما يكن فهم الفلاسفة اليونان لطبيعة اللغة ودورها التواصلي، فالذي لا شك فيه أنه كان هناك وعي عميق بطبيعتها الحجاجية، وقدرتها على بيان الحقيقة أو تزييفها. ويعتبر استثمار المغالطات الحجاجية في تطويع الغير والاستحواذ عليه، من جهة، ودراستها دراسة كشف وتعرية، من جهة أخرى، أكبر دليل على هذا الوعي.

---

[1] عمرو بن بحر الجاحظ : رسائل الجاحظ، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، 1964، ج1، ص 285.

[2] انظر :عبد الرحمان بدوي : منطق أرسطو، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت، ط1، 1980، ج3، ص 773 وما بعدها.

[3] انظر تلخيص منطق أرسطو لابن رشد، تح. جيرار جهامي، دار الفكر اللبناني، ط1، 1992.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019

وفي العصر الحديث درست المغالطات الحجاجية، من نواحي عديدة، لعل من أبرزها دراسات تيار ما يسمى بالتفكير النقدي Critical Thinking، في أمريكا، والذي عمل على " رسم الحدود بين مسلكين في الاستدلال والاحتجاج للرأي : مسلك أوّل يكون فيه الاستدلال منتجا لأنه يصدر عن نية حسنة، وينأى من ثمّ عن المغالطة والخداع، ومسلك ثان، همُّ أصحابه الإيقاع بالآخر وحمله على الإذعان، حتى إن اقتضى ذلك تضليله ومخادعته ... [ولذلك فقد] كان من أبرز أهدافه إنشاء نماذج تعليمية تعمل على إشاعة التفكير النقدي وتنميته عند المتعلمين، ومدهم بطرائق تحليلية، حتى يتملّكوا حسّا نقديا يمكنهم من إعمال عقولهم إعمالا نقديا في مختلف المسائل التي تعرض عليهم في حياتهم اليومية "[1].

ومن هؤلاء : دوجلاس والتون (Douglas W.) في كتابه : النظرية التداولية للمغالطة (A Pragmatic Theory of Fallacy, 1995)، وجون وودس (John W.) في كتابه : الحجاج : منطق المغالطات (Argument : The logic of falacies, 1982)، وشارلز هامبلن (Charles H.) في كتابه : المغالطات (Falacies, 1970).

ولكن ما هي أبرز المغالطات الحجاجية ؟

سنعرض فيما يلي طائفة صغيرة من المغالطات الحجاجية، وهي طائفة نقدمها على سبيل التمثيل لا الحصر، وإلا فإن أنواع المغالطات تتعدد بصور لا نهائية، ولا يمكن حصرها بحال، وهي تتجلى في أشكال غاية في التعقيد والمراوغة.

مغالطة المصادرة على المطلوب

ومن أبرز المغالطات التي تتكرر بصورة دورية، ما يسميه علماء المنطق بمغالطة المصادرة على المطلوب، وهي أن يجعل المطلوب نفسه مقدمة في قياس يراد إنتاجه. بمعنى أنك " تفترض صحة القضية التي تريد البرهنة عليها، وتضعها بشكل صريح أو ضمني في إحدى مقدمات الاستدلال. وأنت بذلك تجعل النتيجة مقدمة، وتجعل المشكلة حلا، وتجعل الدعوى دليلا. وهو ضرب من الحجة الدائرية arguing in a circle. والاستدلال الدائري ليس مغالطا في صميمه، ولكنه يغدو كذلك حيثما استخدم لكي يموه على فشل في حمل عبء البرهان. وتنجم المشكلة حيثما كانت النتيجة المراد إثباتها مفترضة أصلا داخل المقدمات التي يتعين على الخصم أن يسلم بها ويبدأ منها "[2].

وقد انتبه إليها علماء العرب القدامى بصورة مطابقة لما هو متعارف عليه اليوم. وقد رصدها التهانوي في معجمه قائلا : هي " عند أهل النظر، تطلق على قسم من الخطاء في البرهان لخطاء مادته من جهة المعنى، هي جعل

---

[1] حاتم عبيد : منزلة العواطف في نظريات الحجاج، مجلة عالم الفكر، المجلد 40، 2011، ص 245.

[2] عادل مصطفى : المغالطات المنطقية، ص 25.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019